تدبُّر القرآن

د. خالد النجار

الألوكة
www.alukah.net
00201156800204

تدبر القرآن

د/ خالد سعد النجار

بسم الله الرحمن الرحيم

تدبُّر القرآن

«ليس أنفعُ للعبد في معاشه ومعاده، وأقربُ إلى نجاته من تدبُّرِ القرآن، وإطالة التَّأمُّل، وجَمْعِ منه الفِكْر على معاني آياته؛ فإنَّها تُطْلِعُ العبدَ على معالم الخير والشَّر، وتُثَبِّتُ قواعدَ الإيمان في قلبه، وتشيد بنيانه، وتوطِّد أركانه، وتعطيه قوَّةً في قلبه، وحياةً، وسعةً، وانشراحًا، وبهجةً وسرورًا، فيصير في شأنٍ والنَّاسُ في شأنٍ آخر، وفي تأمُّلِ القرآن وتدبُّرِه أضعافُ أضعاف ما ذكرنا من الحِكَم والفوائد» [ابن القيم]

** «التَّدبُّر» لغة: من تدبَّر الأمرَ تدبُّرًا: نَظَرَ في أدباره، أي: عواقبه، وتفكَّر فيه.

وتدبَّر الأمرَ: رأى في عاقبته ما لم يره في صدره، قال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ﴾ [المؤمنون: 68]. أي: ألم يتفهَّموا ما خُوطبوا به في القرآن العظيم.

قال "ابن منظور": "ودبَّر الأمر وتدبَّره: نظر في عاقبته.. والتدبير في الأمر: أن تنظر إلى ما تؤول إليه عاقبته، والتدبر: التفكر فيه" [لسان العرب]

وخلاصة التَّدبُّر – في أصل اللُّغة: هو النَّظر في عاقبة الأمر والتَّفكُّر فيه، بحيث يشمل أواخر دلالات الكَلِم ومراميه البعيدة.

أما «تدبُّر القرآن» اصطلاحًا: قال الآلوسي رحمه الله: «وأصل التَّدبُّر: التَّأمُّل في أدبار الأمور وعواقبها، ثمَّ استُعمل في كلِّ تأمُّل، سواء كان نظرًا في حقيقة الشَّيء وأجزائه، أو سوابقه وأسبابه، أو لواحقه وأعقابه».

وقال السِّعدي –رحمه الله– في معنى تدبُّر القرآن: «هو التَّأمُّل في معانيه، وتحديق الفِكر فيه، وفي مبادئه، وعواقبه، ولوازم ذلك»

فتدبر القول عند علماء التفسير يدور حول: "إعمال الفكر، والنظر، والتأمل، والتفهم في آي القرآن الكريم، للوصول إلى معانيه ومقاصده، والعمل بما فيه".

والخلاصة في «معنى تدبُّر القرآن»: تفهُّم معاني ألفاظه، والتَّفكُّر فيما تدلُّ عليه آياته مطابقةً أو ضمنًا، وما لا تتمُّ تلك المعاني إلاَّ به من الإشارات والتَّنبيهات، وانتفاعُ القلب بذلك، بخشوعه عند مواعظه، وخضوعه لأوامره ونواهيه، وأخذ العبرة منه.

فالقرآن ما نزل لمجرد تلاوة حروفه فقط، وإنما نزل من أجل التدبر في معانيه، والتفكر في مضمونها لأخذ العبر من قصصه، وللاستفادة من مواعظه، وامتثال أمره، والكف عن نهيه.

** وقد حصل نوع من أنواع الشطط في مفهوم "التدبر" عند المعاصرين، وبعضهم حصره في استخراج المعاني الغامضة، واللطائف، والنكات الدقيقة، وهذا حصر لمفهوم واسع، بل إن من أولى ما يستخرجه الإنسان من تدبره لكتاب الله، هو: العمل به.

يقول د. خالد السبت: "فإن من الشطط أن تتوجه الأذهان عند الحديث عن التدبر إلى استخراج المعاني واللطائف والنكات الدقيقة التي لم نسبق إليها!! فإن ذلك لا يصلح إلا للعلماء، لكنَّ المؤمن يتدبر ليرقق قلبه، ويتعرف على مواطن العبر، ويعرض نفسه على ما ذكره الله في القرآن من أوصاف المؤمنين، ويحذر من الاتصاف بصفات غيرهم، إلى غير ذلك مما ينتفع به، ويمكن حصوله لكل من تدبر كتاب الله تعالى" [الخلاصة، خالد السبت]

قال الطبري في تفسيره: "يقول -تعالى ذكره- لنبيه محمد -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: وهذا القرآن كتاب أنزلناه إليك يا محمد مبارك ليدبروا آياته يقول ليتدبروا حجج الله التي فيه وما شرع فيه من شرائعه فيتعظوا ويعملوا به". اهـ

وقال النووي رحمه الله: فإذا شرع في القراءة فليكن شأنه الخشوع والتدبر عند القراءة، والدلائل عليه أكثر من أن تحصر، وأشهر وأظهر من أن تذكر، فهو المقصود المطلوب، وبه تنشرح الصدور، وتستنير القلوب، قال الله عز وجل: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ﴾، وقال تعالى: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ﴾، والأحاديث فيه كثيرة، وأقاويل السلف فيه مشهورة، وقد بات جماعة من السلف يتلون آية واحدة يتدبرونها ويرددونها إلى الصباح، وقد صعق جماعة من السلف عند القراءة، ومات جماعة حال القراءة". اهـ

وقد أخبر النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- بأنه سيخرج ناس يقرؤون القرآن دون تدبر، فقال -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: (سيخرج أقوام من أمتي يشربون القرآن كشربهم اللبن). [الطبراني وحسنه الألباني]

قال المناوي في «فيض القدير»: أي يسلقونه بألسنتهم من غير تدبر لمعانيه، ولا تأمل في أحكامه، بل يمر على ألسنتهم كما يمر اللبن المشروب عليها بسرعة. اهـ

وقد ذكر أهل العلم أن ممّا يعين القارئ على معرفة دلائل الآيات الوقوف أمام الآية التي يقرؤها وقفةً متأنيةً فاحصة، مع استحضار معنى الجمل والكلمات المكونة لها، مكرِّراً النظر في مورد السياق الكلام السابق واللاحق، واستحضار الموضوع العام للسورة أو المقطع، والبحث عن حكمة الترتيب، ووجه التعقيب في آخر الآية، والغاية التي تدور حولها الآيات، والنظر في ذلك كله عن طريق كتب التفاسير المأثورة والمعتمدة.

** يقول الأستاذ محمد مصطفى عبد المجيد في مقاله: «التدبُّر والتحرُّر من أَسْر اللطائف القرآنية!»

لقد أنعم اللهُ –عز وجلَّ– علينا في هذا الزمان بهذه الصحوة المباركة في تدبُّر القرآن الكريم، وهذه النهضة في ميادينه على مستوى التأليف والتدريس والتطبيق، بل قد نشأت بعض المؤسسات العلمية والتربوية أصالةً للعناية بهذا الغرض الشريف، وصار موضوع تدبُّر القرآن حاضرًا في الحلقات القرآنية بعد أن غاب عنها طويلًا.

تدبُّر القرآن.. تلك الكلمة الجميلة التي حجبتها سُحُب الغفلة، وانصرف الناسُ عنها حتى كادت آثارُها تنمحي في نفوسهم، بينما كانت علاقةُ بعضهم بالقرآن مقتصرةً على حفظ ألفاظه، وإتقان أحكام تجويده، وعلاقة آخرين مقتصرةً على قراءة حروفه هذًّا كهذِّ الشعر، لا يَتجاوزُ الحروفَ إلى ما وراءها من الهُدى والنور الذي وصف اللهُ –عز وجلَّ– به كتابَه الكريم.

ثم كانت هذه العودة لتنفضَ الترابَ عن هذا الكنز المغفول عنه، ولتنقشعَ تلك السحب، ولتَرفعَ الغشاوةَ عن أعينٍ طالما حُرمتْ مِن الاهتداء بآيات القرآن والانفعال والتأثّر بها، وكثُرت المحاضرات والدورات والمؤلفات في مجال تدبُّر القرآن، ثمَّ خرجت مِن ضيق صالات الدرس ومدرجات الجامعات إلى رحابة الأمة الواسعة؛ متخصِّصيها وغير متخصِّصيها، كبيرها وصغيرها، عالمها وجاهلها.

وإنَّ عودة الأمة وانبعاثها إلى مجدها من جديد لن يكون إلا من خلال ذلك الحَبْل الذي جعل اللهُ –عز وجلَّ– طرفَه بيده وطرفَه بأيدينا، وهو هذا القرآن العظيم؛ لذا فمازلنا في

حاجة إلى مزيدِ توعيةٍ ونشرٍ لثقافة تدبُّر القرآن؛ فإن الصحوة وإن كانت ملحوظةً للمتابع بصورة واضحة، إلا أنها ما زالت في أولى خطواتها، وإنما أينعت ثمارُ خطواتها الأولى ببركة هذا الكتاب المجيد الذي جعله اللهُ مباركًا، ولعلَّ في هذه الثمار العاجلة مزيدَ ترغيبٍ وحثٍّ للانطلاق إلى مزيدٍ من بثِّ الوعي بشأن تدبر القرآن الكريم.

إشكالية الانحصار في اللطائف القرآنية:

والانبعاثُ من تحت الركام قد يعتريه بعضُ الزلل، ويعتَورُه بعضُ النقص، وقد تَعرِض له أعراضٌ تحتاج إلى تقويمٍ وتوجيهٍ وتصحيحٍ، فينبغي إعادةُ النظر والتقويم لما يُطرَح في هذا الباب دوريًّا لتصحيح مسارِه، وتوجيهه التوجيه الأمثل.

وإن مما عَرَض لمسيرة التدبُّر: الانحصار في اللطائف القرآنية كثمرة من ثمرات التدبر، ولا يلزم أن يكون ذلك تصريحًا؛ بل إنّ الممارسات التنفيذية والأمثلة المضروبة والتطبيقات العلمية تكشف وجهَ هذا الانحصار، والذي تتجلَّى مظاهرُه في عدة أمور، منها:

– أن إطلاق كلمة التدبُّر صارت تنصرف عند كثيرٍ من الناس إلى ذكر هذه اللطائف القرآنية دون غيرها.

– وكذلك فإنَّ كثيرًا من الكتب المؤلفة في تدبُّر القرآن ركَّزت على أن يكون ناتجها لدى القارئ استنباطَ المعاني الخفية، واستخراجَ اللطائف الدقيقة.

– ثم إنّ كثيرًا من الدورات التدريبية التي تُعقد في المؤسسات العلمية والتربوية في العالم الإسلامي تكاد تنحصر مجالات تطبيقها في الورش العملية على هذا الأمر.

– وصار المريدُ لتدبُّر القرآن لا يَعُدُّ نفسَه متدبرًا إلا إذا أخرج مثل هذه اللطائف والفوائد، فإذا عجز عن ذلك ولم يُحسِنه –ولا يُحْسِنُ هذا كلُّ أحد– عدَّ نفسه غيرَ متدبِّرٍ، واتَّهم نفسه بكلِّ ما يُذكر من آفاتٍ في عوائق التدبُّر.

ولا شكَّ أنّ استنباط اللطائف والفوائد داخلٌ إجمالًا في التدبُّر، وإنما الإشكال في حصر التصوُّر عن التدبُّر في هذا الأمر؛ لذلك نريد أن نقف وقفةً مع هذه القضية لنُجيب عن هذه الأسئلة: هل هذا هو تدبُّر القرآن الكريم؟ وهل هذا هو المأمورُ به، اللازمُ لكلِّ أحد؟ وهل لا يُعَدُّ المرء متدبرًا إلا إذا تمكَّن من الوقوف على هذه المعاني الدقيقة؟

ولكن قبل أن نُدْلف إلى الإجابة عن هذه الأسئلة، فإننا في حاجة إلى وقفة مع توصيفٍ لهذه اللطائف القرآنية، وإنزالٍ لها في منزِلها العلميِّ من علوم القرآن الكريم.

توصيف اللطائف القرآنية الشائعة في ممارسات التدبر:

الناظرُ في نماذج اللطائف القرآنية التي تُنشر في الكتب تحت هذا العنوان، وفي تطبيقات دورات تدبُّر القرآن، وكذلك على مواقع التواصل الاجتماعي= يجد أن الغالبَ عليها ذكرُ المعاني الخفية في الآيات، وتتنوَّع هذه المعاني في علاقاتها بمعنى الآية، إلا أنّ الجامعَ لها هو الخفاء، لا المعنى الظاهر للآية، ولنضرب مثالًا لذلك:

في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾ [يوسف:54]

إن قال قائل: "يقول تعالى إخبارًا عن الملك حين تحقَّق براءةَ يوسف –عليه السلام– ونزاهةَ عِرضه مما نُسب إليه، قال: ﴿ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي﴾ أي: أجعله من أخصَّائي وأهل مشوريتي، ﴿فَلَمَّا كَلَّمَهُ﴾ أي: خاطبه الملكُ وعرفه، ورأى فضله وبراعته، وعلم ما هو عليه من خُلُق وخَلْق وكمال= قال له الملك: ﴿إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾، أي: إنك عندنا قد بَقِيتَ ذا مكانة وأمانة"

فهذا لا يُعدُّ تدبُّرًا على المعنى الشائع للتدبر؛ بل هو بيانٌ للمعنى الظاهر للآيات، فهو خارج عن المراد من ممارسات تدبُّر القرآن الكريم، وإن كان هو الأساس الذي يُبنى عليه.

أما إن قال قائل: "لما أراد اللهُ –عز وجلَّ– إظهارَ فضل يوسف –عليه السلام– وشرفه على أهل زمانه كلِّهم؛ أظهر للمَلك وأهلِ مصر من علمه بتأويل رؤياه ما عجز عنه علماءُ التعبير، فحينئذٍ قدَّمه ومكَّنه وسلَّم إليه خزائنَ الأرض، وكان قبل ذلك قد حبسه على ما رآه من حُسن وجهه وجمال صورته، ولَمَّا ظهر لَهُ حُسنُ صورة علمه وجمالُ معرفته أطلقه من الحبس ومكَّنه في الأرض؛ فَدلَّ على أن صورةَ العلمِ عند بني آدم أبهى وأحسن من الصورة الحسيّة، ولو كانت أجملَ صورة"

فمعنى تفضيل صورة العلم عند بني آدم على الصورة الحسيَّة= داخلٌ في التدبُّر على المعنى الشائع، حيث أنّ فيه تجاوزًا للمعنى الظاهر للآية إلى معنى خفيٍّ من ورائه.

ثمَّ إنَّ كثيرًا ممَّن كتب في تدبر القرآن يجعله قسيمًا للتفسير، وربما صَنَّف في ضوء ذلك ما يُذكر من الفوائد القرآنية إلى تفسير وتدبُّر، وهذا أبين في التوضيح عن المراد، وإن

اختلفت بعض التطبيقات العملية عن ذلك، وأدرجت ما هو بيان لمعنى الآية تحت عنوان التدبر.

وهذا المعنى الخفيُّ يترل عليه اصطلاحُ (الاستنباط) عند جملةٍ من أهل العلم، كما نسبه النووي –رحمه الله– (ت676 هـ) إلى العلماء في قوله: «قال العلماء: الاستنباط استخراج ما خَفِي المراد به من اللفظ»، وبقريب من هذا عرَّفه الجرجاني (ت816 هـ) في التعريفات بقوله: «استخراج المعاني من النصوص، بفَرْط الذِّهن وقُوَّة القريحة»

وكان معنَيَا الخفاء وإعمال الذهن حاضرَينِ في كثيرٍ من تعريفات أهل العلم ممَّن قصد إلى تعريف الاستنباط من المفسرين وغيرهم.

إذن؛ فالتوصيف الأقرب لأكثر هذه اللطائف القرآنية التي تتوجَّه إليها أنظار المعتنين بالتدبر هو «الاستنباط»، ويُمكن القول من خلال ذلك أن طريق الوصول إلى المعنى المستنبط هو التدبُّر، أي أن المعاني المستنبطة هي ثمرة من ثمراته.

ولا شكَّ أنّ هذا العمل من أشرف الأعمال وأجلِّ القربات، وقد قال ابن القيم –رحمه الله– (ت751 هـ): «قد مدح اللهُ تعالى أهلَ الاستنباط في كتابه، وأخبر أنهم أهل العلم»، إلا أنَّ له ضوابطَ وشروطًا ينبغي التنبُّه لها، وإلا فقد كان الاستنباط الخاطئ بذرةَ ضلال كثير من أهل البدع والأهواء؛ إما جهلًا بتفسير الآية ابتداءً، أو قلّة العلم بلغة العرب وأساليبها في الخطاب، أو غفلة عن طرق الاستنباط الصحيح، أو غير ذلك من الأسباب، فلا بدَّ من التنبُّه للضوابط العاصمة من الزلل في الاستنباط، والتأكيد عليها عند تناول هذا الباب.

التدبر في القرآن الكريم:

ونعودُ على بدءٍ، فنسأل: هل تقتصر ثمرات التدبر على استنباط المعاني الخفية واللطائف القرآنية؟!

سنحتاجُ هنا إلى أن نرجع إلى التوجيه الإلهي إلى التدبُّر، والنظر في سياقاته التي ورد فيها في القرآن الكريم، والتي ينبغي أن تُمثِّل المنطلقَ الأولَ في فهم مراد الله تعالى من ذلك، ومن خلالها تُدرَك الثمرات المرجوَّة من المتدبِّر الممتثِل لهذا التوجيه الإلهي.

ورد التدبُّر في القرآن الكريم بصيغتي: (يتدبرون) و(يَدَّبَرُوا)، وكلاهما ورد في موضعين، وقُرئت الثانية في أحد موضعيها: (تَدَبَّروا)، فلنقف مع سياق المواضع الأربعة، مع تسليط الضوء على بعض المراد منها مما له تعلُّق بموضوعنا:

1/ الموضع الأول: قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء:82].

الناظرُ في سياق الآيات قبلها يجد أنه في المنافقين، والآية قبلها: ﴿وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِنْدِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ [النساء:81]، وهي في المنافقين باتفاق المفسرين، كما ذكر ذلك ابن عطية –رحمه الله– (ت542 هـ)

وفي هذه الآية الكريمة توقيفٌ وتوبيخٌ للمنافقين على عدم تدبر القرآن، وأنهم لو تدبروه لتبيَّن لهم أنه من عند الله –عزَّ وجل.–

2/ الموضع الثاني: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [محمد:24]

والناظر في سياق الآيات قبلها يجد أنها في المنافقين أيضًا؛ قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأَوْلَى لَهُمْ * طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ * فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ * أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ﴾ [محمد:20–23]

قال ابن عطية –رحمه الله– (ت542 هـ) في أول تفسير هذه الآيات: «هذا ابتداءُ وصفِ حالِ المؤمنين في جِدّهم في دين الله وحرصهم على ظهوره، وحالِ المنافقين من الكسل والفشل والحرص على فساد دين الله وأهله»

وفي هذه الآية الكريمة توقيفٌ وتوبيخٌ للمنافقين على عدم تدبرهم القرآن كسابقتها، وبيانُ أنَّ الحالَ المقابلة لحال مَن تدبَّر القرآن حالُ مَن أُوصد قلبُه بالأقفال.

3/ الموضع الثالث: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ [المؤمنون:68]

وسياق الآيات قبلها وبعدها في ذكر الكفار، فقبلها: ﴿قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ تَنْكِصُونَ * مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِرًا تَهْجُرُونَ﴾ [المؤمنون:66–67]

وبعدها: ﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ * أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ﴾ [المؤمنون:69-70]

ففي هذه الآية توقيف وتوبيخ للكفار على عدم تدبرهم القول الذي هو القرآن الكريم الذي يتلوه عليهم رسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-.

4/ الموضع الرابع: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [ص:29]، هكذا قرأ الجمهور، وقرأ أبو جعفر (ت130 هـ): (لِتَدَبَّرُوا) بالخطاب مع تخفيف الدال.

وهذه الآية عامة لجميع الخلق، والآية قبلها: ﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾ [ص:28]

قال ابن عطية: «وظاهرُ هذه الآية يُعطي أنّ التدبّر من أسباب إنزال القرآن، فالترتيل إذن أفضل من الهذِّ؛ إذ التدبّر لا يكون إلا مع الترتيل»

وفي الآية أيضًا بيانُ مَن ينتفع ويتذكَّر بالقرآن، وهم أولو الألباب.

ما هو التدبر الذي أمر الله -عز وجل- به عباده؟

ونحتاج هنا أن نقف وقفة مع مادة التدبر في سياقها القرآني، ونتساءل: ما هو التدبر الذي أمر الله -عز وجل- الناس به؟ وما هو التدبر الذي عاب على الكفار والمنافقين عدمَ فعله والإعراضَ عنه؟

لا يُعقَل أن يكون الجواب هو ما يتبادر إلى الذهن إذا ما أطلق التدبُّر من «استنباط الفوائد»، والوقوف على اللطائف القرآنية، فمثل هذا لا يُخاطَب به الكفار والمنافقون! ومثل هذا لا يُذَمُّ فاعلُه هذا الذَّم، ولا يُتوعَّد عليه هذا الوعيد!

لقد جعل الله -عز وجل- التدبُّرَ داعيًا لهم إلى معرفة أنَّ القرآن من عند الله واليقين بذلك: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء:82].

ولقد جعل الله -عز وجلَّ- التدبُّرَ سببًا من أسباب إنزال القرآن: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [ص:29].

ولقد جعل الله -عز وجلَّ- قسيمَ المتدبرين مَن أغلقت قلوبهم بالأقفال: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [محمد:24]

إنَّ الأمر بالتدبر أوسع من فكرة استنباط الفوائد واللطائف، وإن كانت من ثمراته، إلا أنها ليست ثمرته الوحيدة، بل ليست الأصل في المراد من الخلق بتدبر القرآن، كما هو ظاهر هذه الآيات الكريمة.

وربما أخذَنا هذا إلى الكلام في تحرير معنى التدبر ومدلولاته، وهذه المسألة وإن كانت ذات أهمية في بحث المسائل المتعلقة بالتدبر، والاجتهاد في وضع منهجيات عملية له؛ إلا أنها يجب أن يكون لها أثرٌ ظاهرٌ في المضامين المختارة تحت عنوان التدبر، وأثرٌ ظاهرٌ في المنهجيات المقترحة والجوانب التطبيقية، وهذا ما غاب عن العديد مما وقفتُ عليه في كتب التدبر.

كثيرٌ من كتب التدبر تبدأ أولًا ببيان أهمية تدبر القرآن بذكر الآيات التي تعرضنا لها قبلُ، وذِكر الأحاديث النبوية الدالة على فضل التدبر ومكانته، وأقوال السلف في ذلك، ثم إذا انتقلت إلى الجواب عن سؤال: (كيف؟)، وصاغت الخطوات العملية للتدبر= فإنَّ المنتج النهائي لهذه الخطوات غالبًا ما يقتصر على كيفية استنباط الفوائد بأدوات الاستنباط وعن طريق معرفة الدلالات المختلفة، وهذا المنتَج غير المقصود ابتداءً من النصوص التي ذكرها المؤلفون في بادئ الأمر.

وكثيرٌ من كتب التدبر تستعرض التعريفات للتدبُّر لغةً بالنظر إلى أصل مادته ودلالة تصريفه، وشرعًا بحسب وروده في القرآن الكريم وذِكر أقوال المفسرين في معنى التدبر في الآيات الأربعة المذكورة، ثم لا يكون هذا التعريفُ منطَلَقًا بعد ذلك في الإجراءات العملية والمقترحات التنفيذية لتحقيق التدبُّر؛ مما يدلُّ على أن الإشكالية لا تقتصر فقط على تحرير المراد بالتدبُّر، بل تنسحب إلى تأثير هذا المراد فيما يُعرض بعد ذلك من ذكر أدواته وخطواته العملية في الكتب المؤلفة في هذا الباب، والتي تحتاج إلى دراسة جامعة تستقصي ما أُلّف في هذا الباب –خاصة في جانب التنظير–، وتقوم بتحليل هذه الكتب وعقد الموازنات بينها؛ تصحيحًا لمسار التنظير في هذا الباب، وضبطًا له.

والذي نخلُص إليه في هذا المقام: أنَّ التدبر الذي تعبَّد الله –عز وجل– به عباده، وأمر به جميعَ الخلق مؤمنهم وكافرهم ليس هو استنباط الفوائد والمعاني الخفية من الآيات! بل الشأن أعظم من ذلك وأوسع، وما قصرُ دلالةِ التدبر على هذا المعنى إلا تضييقٌ لهذا الأفق الواسع من ثمرات التدبر الغنَّاء وعطاءاته التي لا تنقطع.

ثمرات أخرى للتدبر سوى اللطائف القرآنية:

خلصنا فيما سبق إلى أنّ استنباط الفوائد واللطائف القرآنيّة هو ثمرة من ثمرات التدبر، وليس هو التدبر، وليس الثمرة الوحيدة له، وأن المتدبِّر قد يتدبر القرآن، ثم لا يُخرج مثل هذه الفوائد، بل ربما لا يُحسن إخراجها، ولكنه قد أصاب غيرها من ثمرات التدبر، وكم من رجلٍ لا يُحسن أن يقول مثلما يقول الناس من اللطائف والفوائد، ولكنَّه أكثر تدبرًا من غيره ممَّن قد يتكلَّف في ذكر الفوائد، ويقع في أخطاء علمية في استنباطه من القرآن الكريم.

– إن الإنسان قد يتدبَّر القرآن فيثمر عنده مزيدَ علم ولو بالمعنى الظاهر دون استنباط معانٍ خفية، وهل كانت دعوة المنافقين لتدبر القرآن إلا لذلك؟! ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء:82]، فإذا تدبروه ولم يقفوا عند ألفاظه فقط علموا أنه لا اختلاف فيه، وأنه من عند الله –عز وجل–.

– وقد يتدبَّر القرآن فيُثمر عنده اليقينَ بما علم قبل ذلك، وترسيخَ ما سبق له علمه، ولعلَّ هذا من أغراض تكرار الحديث عن صفات الله –عز وجل– وأفعاله في القرآن، وعن اليوم الآخر والجنة والنار، فالقارئ وإن علم كلّ ذلك؛ إلا أنه متى تدبَّر ازداد يقينه، واليقين من الإيمان يزيد وينقص.

– وقد يتدبَّر القرآن فيُثمر عنده تأثرًا وانفعالًا بآياته، كما أخبر الله –عز وجل– عن حال المؤمنين: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الزمر:23]، فهؤلاء قرؤوا القرآن أو قُرئ عليهم، ففهموا معانيه وتدبَّروها، فأثمر عندهم هذا التأثر والانفعال بالآيات، فهؤلاء متدبرون ولو لم يزيدوا على معنى الآيات الظاهر بشيء، ولو لم يستنبطوا معانيَ خفيةً من الآيات.

– وقد يتدبر القرآن فيثمر عنده عملًا، فمن قرأ قول الله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ * الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ * أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة:155–157]، ففهم معناه وتدبَّره، واتصف بنعت الصابرين في الآية، وقال: "إنا لله وإنا إليه راجعون" إذا نزلت به مصيبة، مدركًا لمعناها، مؤمنًا بها= فقد تدبَّر القرآن وإن لم يُدلِ بدلوه في ذكر اللطائف القرآنية الخفية.

إنَّ حصر مفهوم التدبر في استخراج الفوائد القرآنية واللطائف الخفية هو في الحقيقة أسرٌ يحرم المتدبِّر من آفاقٍ واسعة من ثمرات جنة التدبُّر الغنَّاء، فينبغي للمتدبر أن يُحرِّر تصوُّره من هذا الأسر، وأن يحيا تدبُّر القرآن في معناه الصافي النقي الذي يراه في صفات مَن أثنى الله عليهم في كتابه، ويقرؤه في أخبار النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وصحابته الكرام والصالحين من هذه الأمة.

وليس هذا تقليلًا من شأن الاستنباط من القرآن الكريم، أو العناية باللطائف القرآنية كما هو بيِّن في الكلام من أوله إلى آخره؛ إنما هو تصحيح لمفهوم وسَّعه الله -عز وجل- على خلقه، ثم ضيَّقته بعض الممارسات الخاطئة، فحَرَمَتْ وحُرِمَت!

** تبرز أهميَّة تدبُّر القرآن العظيم في أمور كثيرة، يأتي في مقدِّمتها أنَّ تدبُّر القرآن وتفهُّم علومه من النُّصح لكتاب الله تعالى، وقد أشار إلى هذا المعنى أهل العلم، منهم ابن رجب -رحمه الله- بقوله: «وأمَّا النَّصيحة لكتاب الله: فشدَّةُ حُبِّه وتعظيمُ قدرِه، إذ هو كلامُ الخالق، وشدَّةُ الرَّغبة في فَهْمِه، وشدَّةُ العناية لتدبُّره، والوقوف عند تلاوته؛ لطلب معاني ما أحبَّ مولاه أن يفهمه عنه، ويقوم به له بعدَ ما يفهمه.

وكذلك النَّاصح من العباد يتفهَّم وَصِيَّةَ مَنْ ينصحه، وإنْ ورد عليه كتابٌ منه عُني بفَهْمه؛ ليقوم عليه بما كَتَبَ به فيه إليه، فكذلك النَّاصحُ لكتاب ربِّه يُعنى بفَهْمه؛ ليقوم لله بما أمر به كما يحبُّ ويرضى، ثم يَنْشُرُ ما فهم في العباد، ويُديم دراسته بالمحبَّة له، والتَّخلُّق بأخلاقه، والتأدُّب بآدابه».

** جاء مصطلح «التدبر» في الاستعمال القرآني في سياق بيان "الحكمة" من إنزال الكتاب، والغاية التي دُعي الناس إليها. قال سبحانه: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [ص:29]

وهذه الآية عامة، في حق الناس جميعا. ولأجل ذلك، وردت الدعوة عامة للمشركين، أن يتدبروا كتاب الله، ويستدلوا على عظيم إحكامه، وعالي بيانه، على صدق مجيئه من عند رب العالمين. قال سبحانه: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء:82]

ووقع الذم الشديد لمن أعرض عن تدبر القرآن، وتفهم معانيه؛ الأمر الذي حرمهم أنوار هداياته، وأبقاهم في الشرك وظلماته:

قال الله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [محمد:24]

قال ابن عاشور –رحمه الله–: "والمعنى: أن الله خلقهم بعقول غير منفعلة بمعاني الخير والصلاح فلا يتدبرون القرآن مع فهمه أو لا يفهمونه عند تلقيه وكلا الأمرين عجيب. والاستفهام تعجيب من سوء علمهم بالقرآن ومن إعراضهم عن سماعه". [التحرير والتنوير]

وقال الشيخ السعدي –رحمه الله–: "أي: فهلا يتدبر هؤلاء المعرضون لكتاب الله، ويتأملونه حق التأمل، فإنهم لو تدبروه، لدلهم على كل خير، ولحذرهم من كل شر، ولملأ قلوبهم من الإيمان، وأفئدتهم من الإيقان، ولأوصلهم إلى المطالب العالية، والمواهب الغالية، ولبين لهم الطريق الموصلة إلى الله، وإلى جنته ومكملاتها ومفسداتها، والطريق الموصلة إلى العذاب، وبأي شيء تحذر، ولعرفهم بربهم، وأسمائه وصفاته وإحسانه، ولشوقهم إلى الثواب الجزيل، ورهبهم من العقاب الوبيل.

أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا أي: قد أغلق على ما فيها من الشر وأقفلت، فلا يدخلها خير أبدا؟ هذا هو الواقع" [تفسير السعدي]

** هناك أمور أخرى تُبرز لنا أهميَّة تدبُّر القرآن الكريم، وهي على النَّحو التَّالي:

أ- حاجة القلب إلى تدبر القرآن:

القلب فيه وحشة لا تُزال إلاَّ بالأنس بكتاب الله تعالى، والتَّأمُّل في آياته، وفيه قلق وخوف لا يؤمِّنه إلاَّ السُّكون إلى ما بشَّر الله تعالى به عباده، وفيه فاقة لا يغنيها إلاَّ التَّزوُّد من حِكَمِ القرآن ومواعظه وعبره، وفيه حيرة واضطراب لا ينجيه منها إلاَّ الاعتصام بكتاب الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ * قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس:57–58]

وقد حذَّر الله تعالى عباده المؤمنين من مغبَّة التَّمادي في هجر القرآن، فتكون نتيجته قسوةَ القلوب، فقال تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنْ

الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ [الحديد:16].

قال محمد بن كعب –رحمه الله–: «كانت الصَّحابة بمكَّة مُجْدبين فلمَّا هاجروا أصابوا الرِّيف والنِّعمة، ففتروا عمَّا كانوا فيه، فقست قلوبهم، فوعظهم الله فأفاقوا». والعتاب لعامَّة المؤمنين أحرى وأولى.

والأصل أنَّ قلوب المؤمنين وجلودَهم تخشع وتخضع وترقُّ وتسكن وتطمئنُّ عند ذكر الله تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الزمر:23]

فمَنْ أراد أن يخشع قلبه، وينشرح صدره، فلا غنى له عن التَّفكُّر والتَّمعُّن في الآيات الكريمات، ولا يكن همُّه –إذا افتتح السُّورة– أن يقول في نفسه: متى أختمها.

قال الآجرِّي رحمه الله: «فالمؤمن العاقل إذا تلا القرآن استعرض القرآن، فكان كالمرآة يرى بها ما حَسُن من فعله وما قَبُحَ فيه، فما حذَّره مولاه حَذَره، وما خوَّفه به من عقابه خافه، وما رغَّب فيه مولاه رَغِبَ فيه ورجاه. فمن كانت هذه صفته، أو ما قارب هذه الصِّفة فقد تلاه حقَّ تلاوته، ورعاه حقَّ رعايته، وكان له القرآن شاهدًا وشفيعًا وأنيسًا وحِرْزًا، ومن كان هذا وَصْفَه نفع نفسه ونفع أهله، وعاد على والديه وعلى ولده كلُّ خيرٍ في الدُّنيا والآخرة»

و«كان القرآن له شفاءً، فاستغنى بلا مالٍ، وعَزَّ بلا عشيرةٍ، وأنِسَ بما يستوحش منه غيره، وكان همُّه عند التِّلاوة للسُّورة ــ إذا افتتحها: متى أتَّعظ بما أتلوه؟ ولم يكن مراده: متى أختم السُّورة؟ وإنَّما مراده: متى أعقل من الله الخطاب؟ متى أزدجر؟ متى أعتبر؟ لأنَّ تلاوته للقرآن عبادة، والعبادة لا تكون بغفلة» [أخلاق حملة القرآن]

وقراءة القرآن بالتَّفكُّر هي أصل صلاح القلب واستقامته، ولا شيء أنفع للعبد في معاشه وأقرب إلى نجاته في معاده من تدبُّر القرآن العظيم، وفي هذا الشَّأن يقول ابن القيِّم رحمه الله:

«فلا شيءَ أنفعُ للقلب من قراءة القرآن بالتَّدبُّر والتَّفكُّر؛ فإنَّه جامعٌ لجميعِ منازلِ السَّائرين، وأحوالِ العاملين، ومقامات العارفين، وهو الذي يورث المحبَّةَ والشَّوقَ والخوفَ والرَّجاءَ والإنابة والتَّوكُّل والرِّضا والتَّفويض والشُّكرَ والصَّبرَ، وسائرَ الأحوال التي بها حياةُ

القلب وكمالُه، وكذلك يَزْجُرُ عن جميع الصِّفات والأفعال المذمومة التي بها فَسادُ القلبِ وهلاكُه.

فلو عَلِمَ الناسُ ما في قراءة القرآن بالتَّدبُّر، لاشتغلوا بها عن كلِّ ما سواها. فإذا قرأه بتفكُّرٍ، حتَّى إذا مرَّ بآية وهو محتاج إليها في شفاءِ قلبه، كَرَّرَها ولو مائةَ مرَّة ولو ليلة، فقراءةُ آيةٍ بتفكُّرٍ وتفهُّمٍ خَيرٌ من قراءة ختمةٍ بغيرِ تدبُّرٍ وتفهُّم، وأنفعُ للقلب، وأدعى إلى حصولِ الإيمان وذَوْقِ حَلاوةِ القرآن، فقراءةُ القرآنِ بالتَّفكُّرِ هي أصلُ صَلاحِ القلب»

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية في «اقتضاء الصراط المستقيم»: "ومن أصغى إلى كلام الله وكلام رسوله بعقله، وتدبره بقلبه وجد فيه من الفهم والحلاوة والبركة والمنفعة ما لا يجده في شيء من الكلام لا منظومه ولا منثوره".

ب - الدخول فيمن أثنى الله عليهم بتدبر القرآن:

أثنى الله عزَّ وجل - في مواضع كثيرة من القرآن - على مَنْ تدبَّر كلامه وتأثَّر به، وبيَّن أن ذلك صفةُ عباد الله الخاشعين، ومن هذه المواضع:

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ * أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [الأنفال:2-4]

ووجه زيادة إيمانهم - عند سماع القرآن: هو أنَّهم ألقوا السَّمع للقرآن، وأحضروا قلوبهم لتدبُّره، فعند ذلك ازداد إيمانهم ويقينهم.

فالتَّدبُّر يُحدث رغبةَ الخير، واشتياقًا إلى كرامة الله تعالى لهم، ووَجَلًا من عقوباته، وزجرًا عن معاصيه، وكلُّ هذا ممَّا يزداد به الإيمان

قوله تعالى: ﴿قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا * وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا * وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ [الإسراء:107-109]

تُبيِّن الآية الكريمة أنَّ الذين أوتوا العلم هم الذين يتأثَّرون عند سماع مواعظ القرآن؛ بسبب تدبُّرهم لآياته، وفيه إشارة إلى أنَّ مَنْ لم يتأثَّر بالقرآن فهو جاهل لا يستحق وصف العلم.

وكَرَّرَ ذِكْرَ الخرور للأذقان؛ لاختلاف السَّبب: فالأوَّل: لتعظيم الله تعالى وتنزيهه. والثَّاني: للبكاء بتأثير مواعظ القرآن في قلوبهم، وزيادة خشوعهم.

قوله تعالى: ﴿إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾ [مريم:58].

قال القرطبي رحمه الله: «فكانت حالهم [أي: رسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وأصحابه رضي الله عنهم] عند المواعظ: الفهم عن الله، والبكاء خوفًا من الله؛ ولذلك وَصَفَ الله أحوال أهل المعرفة عند سماع ذكر الله وتلاوة كتابه فقال: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ [المائدة: 83]، فهذا وَصْفُ حالهم، وحكاية مقالهم، ومَنْ لم يكن كذلك، فليس على هديهم ولا على طريقتهم، فمَنْ كان مستنًّا فلْيَسْتَن».

ج- عدم التعرض إلى الذم لترك التدبر:

فقد ذمَّ الله تعالى حال من هجر تدبُّر القرآن، ولم يفقه الآيات، ولم يدبِّر القول في صيغ مختلفة، وأحوال متنوِّعة، ومنها:

1/ قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ﴾ [النساء:82]، [محمد:24]. قال القرطبي رحمه الله: «عاب المنافقين بالإعراض عن التَّدبُّر في القرآن، والتَّفكُّر فيه، وفي معانيه»

وزاد الشَّنقيطي رحمه الله الأمر بيانًا، بقوله: «ما تضمَّنته الآية الكريمة من التَّوبيخ والإنكار على مَنْ أعرض عن كتاب الله؛ جاء موضَّحًا في آيات كثيرة. ومعلوم أنَّ كُلَّ مَنْ لم يشتغل بتدبُّر آيات هذا القرآن العظيم - أي تصفُّحها وتفهُّمها، وإدراك معانيها، والعمل بها - فإنَّه مُعْرِض عنها، غيرُ متدبِّر لها، فيستحقُّ الإنكارَ والتَّوبيخَ المذكورَ في الآيات - إنْ كان الله أعطاه فَهْمًا يَقْدِرُ به على التَّدبُّر.

وهذه الآيات المذكورة تدلُّ على أنَّ تدبُّر القرآن وتفهُّمه، وتعلُّمه، والعمل به أمر لا بدَّ منه للمسلمين. فإعراض كثير من الأقطار عن النَّظرِ في كتاب الله وتفهُّمه، والعملِ به، وبالسُّنَّة الثَّابتة المبيِّنة له، من أعظم المناكرِ وأشنعها»

2/ قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ﴾ [المؤمنون:68]. أنكر الله تعالى على الكفار عدمَ تفكُّرِهم في القرآن، وتأمُّلِهم في مواعظه وعبره، وتدبُّرِهم لآياته. فإنَّهم لو تدبَّروه

لأوجب لهم الإيمان، ولمنعهم من الكفر، ولكنَّ المصيبة التي أصابتهم هو إعراضهم عن تدبُّر القرآن. وهذا يدلُّ على أنَّ تدبُّر القرآن يدعو إلى كلِّ خير، ويعصم من كلِّ شر.

3/ قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾ [الفرقان:30].

قال ابن كثير رحمه الله: «وترك تدبُّره وتفهُّمه من هجرانه»

وقال ابن القيِّم رحمه الله: «هجر القرآن أنواع – ثمَّ ذَكَرَ منها – هجر تدبُّره وتفهُّمه ومعرفة ما أراد المتكلِّم به»

4/ مَثَّلَ اللهُ تعالى اليهود مع التَّوراة أقبح تمثيلٍ، فقال تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [الجمعة:5]

قال أبو بكر الطُّرطوشي رحمه الله: «فدخل في عموم هذا مَنْ يحفظ القرآن من أهل ملَّتنا، ثمَّ لا يفهمه، ولا يعمل به»

5/ جاء في وصف الخوارج؛ قوله –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: (يَقْرَؤُونَ القُرآنَ لا يُجَاوِزُ حُلُوقَهُمْ، أو حَنَاجِرَهُمْ).

قال النَّووي رحمه الله – في المراد بذلك: «ليس حظُّهم من القرآن إلاَّ مروره على اللِّسان، فلا يجاوز تراقيهم ليصل قلوبهم، وليس ذلك هو المطلوب، بل المطلوب تعقُّله وتدبُّره بوقوعه في القلب».

والتَّعقُّل والتَّدبُّر يقود إلى العمل. وقال الزَّركشي رحمه الله: «ذمَّهم بإحكام ألفاظه، وترك التَّفهُّم لمعانيه»

6/ عن ابن مسعود –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ– قال: «لا تَهُذُّوهُ (القرآن) هَذَّ الشِّعْرِ، ولا تنثروه نَثْرَ الدَّقل؛ قِفُوا عند عجائبه، وحرِّكوا به القلوبَ، ولا يكن هَمُّ أحدِكم آخرَ السُّورة»

7/ عن أبي جَمْرَةَ –رحمه الله–، قال: «قلتُ لابن عبَّاسٍ: إنِّي سريعُ القراءة، وإنِّي أقرأُ القرآنَ في ثلاثٍ، فقال: لأَنْ أقرأَ البَقَرَةَ في ليلةٍ فَأَدَّبَّرَهَا وأُرتِّلَهَا؛ أحبُّ إليَّ من أن أقرأَ كما تقول».

** جاء في كتاب «الدليل إلى القرآن»، تحت عنوان: «لماذا أتدبر القرآن، وما الطريق إليه؟»

"إنَّ الله يقول جوابًا عن مثل هذا السؤال، ببيان عام للناس جميعًا، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس:57].

إنَّنا نريد من القرآن الحياة! فلا حياة للقلب، ولا سلامة له بغير الإقبال على هذا الكتاب المجيد، إنَّ للمسلم أوصافًا يستمدها بحسب تعلقه بالقرآن، فله من المجد، والحفظ، والرحمة، والهدى، والذكر، بحسب تعلقه بالقرآن تلاوة وفهمًا وعملًا، وقد وعد ربنا الأكرم من أقبل على كتابه تعرضًا لنفحاته بالكرم الجزيل، والأجر العميم.

ففي القرآن الشفاء من الأدواء القلبية المهلكة في العاجل والآجل، ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء:82]، ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق:37].

وفي التعلق بالقرآن يجد الإنسان البصيرة التي هي النور الذي يبصر به مواضع قدمه، ﴿وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ [الرعد:33]، ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا﴾ [النساء:105]

وفي القرآن يحصل القارئ السكينة التي تنزل على القلب بردًا وسلامًا، لتطفئ النار التي تشتعل، لأنه يرى في القرآن مصارع الظالمين، وإن طال الزمان، ومهلكهم الذي جعل الله له موعدًا.

إنَّه لا يحدثك عن القرآن وما يفعله في النفوس، مثل القرآن، ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل:102] ﴿أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [الرعد:19].

أما التدبر، فهو تجربة تخوضها، ونعيم تتذوقه، ومهما أخبرت عنه، فلا بد أن تحياه بنفسك، إنه يبدأ من معرفة مراد الله تعالى بكلامه، بفهم الكلام أولا، وبتثوير هذه المعاني.

إنَّ القرآن كالتمرة كلما زدتها مضغا أعطتك حلاوة، والقرآن يحلو كلما كررته، ولذا ينبغي عليك أن تزيد تكراره، فإنَّ عجائبه لا تنقضي، ولا يخلق على كثرة الرد.

ليس للتدبر دروب وعرة، ولا مسالك موحشة، لأن الله يسر القرآن للناس يأخذ كل منهم بمقدار استعداده، لكن لا يجالس أحدًا القرآن إلا خرج منه بشيء، ولا تزال تخرج بالشيء تلو الشيء حتى تقف على ما يدهش الألباب، ويأخذ بالنفوس.

افهم المعنى، وكرر الآية، ولا تستعجل، بل ازدد في الفهم، وابحث بصدق عن دواء دائك، وشفاء نفسك فإنك لاقيه.

وآفة كثير من الناس انشغالهم بالحديث حول التدبر عن التدبر نفسه، فانشغلوا بالوسيلة عن الغاية، وببنيات الطريق عن واضحاته.

أقبل على القرآن متأملًا، وباحثًا عن مرادك، وتلمسه تجده.

إنَّ في القرآن الكفاية، ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [العنكبوت:51]

اللهم اكفنا بالقرآن، ولا تسلبنا نعمته، واجعل لنا حظا منه!

** ولقد أوجب الله تعالى التَّدبُّر والتَّفكُّر وإمعان النَّظر؛ لفهم معاني آيات الكتاب العزيز، وعاب على المنافقين إعراضهم عن تدبُّر القرآن والتَّفكُّر فيه وفي معانيه في عدَّة مواضع من القرآن، ومنها:

1/ قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء:82]

2/ قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [محمد:24]

3/ قوله تعالى: ﴿ كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ [ص: 29]

إطباق المفسِّرين على وجوب تدبُّر القرآن:

دلَّت هذه الآيات – وما في معناها – على وجوب تدبُّر القرآن العظيم، وقد أطبق على ذلك جمهور المفسِّرين، وهذه بعض النُّقول الواردة عنهم في هذا الشَّأن:

// قال الطبري رحمه الله: «في حَثِّ اللهِ عزّ وجل عباده على الاعتبار بما في آي القرآن من المواعظ والبيِّنات. ما يدلُّ على أنَّ عليهم معرفةَ تأويل ما لم يُحْجَبْ عنهم تأويله من

آيه؛ لأنَّه محالٌ أنْ يُقال لمن لا يَفهمُ ما يقالُ، ولا يَعقلُ تأويلَه: اعتبرْ بما لا فَهْمَ لك به. إلاَّ على معنى الأمر، بأنْ يفهمه ويفقهه، ثم يتدبَّره ويعتبر به»

// واستنبط القرطبي –رحمه الله– من قوله تعالى: ﴿لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ﴾ وجوب معرفة معاني القرآن. وقال: «ودلَّ قولُه تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ﴾ على وجوب التَّدبُّر في القرآن؛ لِيُعْرَفَ معناه»

// وقال ابن عطيَّة الأندلسي –رحمه الله– في قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ﴾ «وهذا أمرٌ بالنَّظر والاستدلال»

// وقال أبو السُّعود –رحمه الله–: «إنكارٌ واستقباح؛ لعدم تدبُّرهم القرآن، وإعراضهم عن التَّأمُّل فيما فيه من موجبات الإيمان»

// وقال الشَّوكاني –رحمه الله–: «ودلَّت هذه الآية، وقولُه تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ على وجوب التَّدبُّر للقرآن؛ لِيُعْرَفَ معناه، والمعنى: أنَّهم لو تدبَّروه حقَّ تدبُّره لَوَجدوه مؤتلفًا غير مختلف، صحيحَ المعاني، قويَّ المباني، بالغًا في البلاغة إلى أعلى درجاتها»

// وقال السُّيوطي –رحمه الله–: «وتدبُّر الكلام بدون فهم معانيه لا يمكن، وأيضًا: فالعادة تمنع أن يقرأ قوم كتابًا في فنٍّ من العلم؛ كالطِّبِّ والحساب، ولا يستشرحونه، فكيف بكلام الله الذي هو عصمتهم، وبه نجاتهم وسعادتهم، وقيام دينهم ودنياهم»

// وقال الزَّركشي رحمه الله: «وبالجملة؛ فالقرآن كلُّه لم يُنزله تعالى إلاَّ لِيُفْهِمَه، ويُعْلَمَ ويُفْهَمَ، ولذلك خاطب به أُولي الألباب الذين يعقلون، والذين يعلمون، والذين يفقهون، والذين يتفكَّرون»

// وقال النووي رحمه الله: فإذا شرع في القراءة فليكن شأنه الخشوع والتدبر عند القراءة والدلائل عليه أكثر من أن تحصر، وأشهر وأظهر من أن تذكر، فهو المقصود المطلوب، وبه تنشرح الصدور، وتستنير القلوب.

والتلاوة لها حقيقة، وهي: الاتباع، والعمل، قال ابن القيم: "وحقيقةُ التلاوة هي التلاوةُ المطلقةُ التَّامَّةُ، وهي تلاوةُ اللفظ والمعنى؛ فتلاوةُ اللفظ جزءُ مُسمى التلاوة المُطلقة، وحقيقةُ اللفظ إنما هي الاتباعُ، يقال: اتلُ أثر فلان، وتلوتُ أثرَه، وقفوتُه وقصصتُه، بمعنى تَبعتُه، ومنه قولُه تعالى: ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا * وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا﴾ [الشمس:1-2]، أي:

تَبعَها في طلوع بعد غَيبتها، ويُقال: جاءَ القومُ يتلو بعضهم بعضًا، أي: يتبع، ويُسمَّى تالي الكلام تاليًا، لأنَّهُ يُتبِعُ بعضَ الحروف بعضًا، لا يُخرجُها جُملةً واحدةً، بل يُتبِعُ بعضها بعضًا مُرتبةً، كُلَّما انقضى حرفٌ أو كلمةٌ أتبعهُ بحرفِ آخرَ وكلمةٍ أُخرى، وهذه التّلاوةُ وسيلةٌ وطريقٌ.

والمقصودُ التِّلاوةُ الحقيقيةُ، وهي تلاوَةُ المعنى واتِّباعُهُ؛ تصديقًا بخبرِه وائتمارًا بأمرِه، وانتهاءَ عن نهيه، وائتمامًا به، حيثُما قادكَ انقدتَ معه، فتلاوةُ القُرآنِ تتناولُ تلاوةَ لفظه ومعناهُ، وتلاوةُ المعنى أشرفُ من مجرَّد تلاوةِ اللفظِ، وأهلُها هم أهلُ القرآن الذين لهم الثناءُ في الدنيا والآخرة، فإنهم أهلُ تلاوةٍ ومتابعةٍ حقًّا" [مفتاح دار السعادة]

ومع هذه الكثرة الكاثرة من النُّصوص الآمرة بتدبُّر القرآن العظيم؛ والتَّفكُّر في معانيه، وإمعان النَّظر فيه، والنَّاهية عن الإعراض عنه، وكذلك النُّقول الواردة عن علماء التَّفسير في وجوب تدبُّر القرآن، نجد أنَّ غالب المسلمين اليوم قد اكتفوا: بألفاظ يردِّدونها، وأنغام يُلحِّنونها في المآتم والمقابر والدُّور، وبمصاحفَ يحملونها أو يودعونها تَرِكَةً في البيوت، ونسوا أو تناسوا: أنَّ بركة القرآن العظمى إنَّما هي في تدبُّر آياته وتفهُّمها، والتَّأدُّب بها، والوقوف عند أوامرها، والبعد عن نواهيها ومساخطها.

** حكم التدبر

النصوص الواردة عن أهل العلم جاءت مطلقة مصرحة بالوجوب دون تفصيل، كما قال ابن حزم في رسائله: "تدبر القرآن فرض" [رسائل ابن حزم]

لكن ينبغي أن نفرق بين مراتب وجوب التدبر على كل إنسان، فكل إنسان يجب عليه أن يتدبر القرآن حسب وسعه وطاقته، وفهمه وقدراته وطاقاته الإدراكية.

قال ابن تيمية: "معرفة ما جاء به الرسول على التفصيل: فرض على الكفاية؛ فإن ذلك داخل في تبليغ ما بعث الله به رسوله، وداخل في تدبر القرآن وعقله وفهمه، وعلم الكتاب، والحكمة، وحفظ الذكر، والدعاء إلى سبيل الرب بالحكمة والموعظة الحسنة، والمجادلة بالتي هي أحسن، ونحو ذلك مما أوجبه الله على المؤمنين فهو واجب على الكفاية منهم.

وأما ما يجب على أعيانهم: فهذا يتنوع بتنوع قدرهم، ومعرفتهم، وحاجتهم، وما أمر به أعيانهم فلا يجب على العاجز عن سماع بعض العلم، أو عن فهم دقيقه ما يجب على القادر

على ذلك، ويجب على من سمع النصوص وفهمها، من عِلم التفصيل: ما لا يجب على من لم يسمعها، ويجب على المفتي، والمحدث، والمجادل ما لا يجب على من ليس كذلك" [مجموع الفتاوى]

فالحاصل أن تدبر القرآن منه:

1/ ما هو واجب على المكلف: وهو ما يتعلق بمعرفة الله، ومعرفة رسوله ودينه، مما لا يصح له إيمانه ودينه من دونه.

2/ ومنه ما هو واجب على الكفاية: وهو ما يختص أهل العلم به، مما يتعلق بفهم كتاب الله، ودينه وشرعه، على التفصيل، وإقامة ذلك في الأمة، علما، وعملا.

3/ ومنه ما هو على الاستحباب: وهو غالب ما يدعو الناس إليه في هذه الأيام؛ شريطة أن يستقيم على النظر الصحيح، والمنهج السديد في الفهم والتأويل؛ لا ما يشتط به الفهم والقول، وما يخرج على غير أصل متين.

** ينبغي أن يُعلم أن التدبر في القرآن على درجات ومراتب، فبحسب ما يؤتيه الله للإنسان من علوم ومعارف تكون استفادته من القرآن.

قال ابن القيم: "والمقصود تفاوت الناس في مراتب الفهم في النصوص، وأن منهم من يفهم من الآية حكمًا أو حكمين، ومنهم من يفهم منها عشرة أحكام أو أكثر من ذلك، ومنهم من يقتصر فهمُه على مجرد اللفظ؛ دون سياقه، ودون إيمائِه وإشارته وتنبيهِه واعتباره.

وأخص من هذا وألطف: ضمه إلى نص آخر متعلق به؛ فيَفهم من اقترانه به قدرًا زائدًا على ذلك اللفظ بمفرده، وهذا باب عجيب من فهم القرآن، لا يَنْتبه له إلا النادر من أهل العلم، فإن الذهن قد لا يشعر بارتباط هذا بهذا، وتعلقه به" [أعلام الموقعين]

** خطوات عملية لتدبر القرآن:

1/ لا بد من تهيئة نفسك لتدبر القرآن، وذلك بمحبة القرآن، وتعظيمه، واستشعار الافتقار لهداياته.

2/ كن مع القرآن دائمًا، تلاوة، واستماعًا، وبحثًا عن الأسئلة التي تدور في ذهنك فيه.

3/ افهم المعنى من كتب التفسير، فشرط التدبر فهم المعنى.

4/ استعن بالكتب التي تعينك على إدراك بعض اللطائف الموجودة في الآيات.

5/ لا تمل من إعادة وتكرار التلاوة مرة بعد أخرى.

6/ ينبغي أن تستحضر في الآيات التي تقرؤها، متفكرا في معناها، متذكرا أنها امتداد للحديث السابق بقدر استطاعتك. فهذا هو الأكمل، ولو أنك تدبرت الآية التي تقرؤها فقط، وصعب عليك تذكر الآيات السابقة فلك نصيب من التدبر بحسبه.

6/ يمكن للمتدبر أن يحدد موضوعًا، ويفتش عنه في القرآن، أو يبحث عن هداية القرآن في مسألة، أو قضية، وسيجد خيرًا عظيمًا.

** ولا شك أن الله تعالى قد يفتح لبعض المتدبرين فهمًا في القرآن لم يسبق إليه. ففي البخاري عَنْ أَبِي جُحَيْفَةَ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ– قَالَ قُلْتُ لِعَلِيٍّ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ– هَلْ عِنْدَكُمْ شَيْءٌ مِنْ الْوَحْيِ إِلَّا مَا فِي كِتَابِ اللَّهِ؟ قَالَ: لَا وَالَّذِي فَلَقَ الْحَبَّةَ وَبَرَأَ النَّسَمَةَ مَا أَعْلَمُهُ إِلَّا فَهْمًا يُعْطِيهِ اللَّهُ رَجُلًا فِي الْقُرْآنِ وَمَا فِي هَذِهِ الصَّحِيفَةِ قُلْتُ وَمَا فِي الصَّحِيفَةِ قَالَ الْعَقْلُ وَفَكَاكُ الْأَسِيرِ وَأَنْ لَا يُقْتَلَ مُسْلِمٌ بِكَافِرٍ.

وهذا يدل على مشروعية وأهمية إعمال الفكر في استخراج الفوائد القرآنية وتدبر ما فيه من الأمور، ولكن فائدة التدبر ومقصده الأساسي تفهم معاني القرآن ومقاصده الأساسية وزيادة الإيمان بما فيه من الحقائق الكبرى كالإيمان بالله وبالآخرة، فيزداد العبد هدى وخشية من الله واستجابة لأوامره، فيوجل القلب عند تلاوة القرآن وسماع آياته، كما قال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس:57]

وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال:2]

وقال تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ [الزُّمر:23}

وقال تعالى: ﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعاً مُتَصَدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر:21]

وكان النبي –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– يقرأ القرآن بتأن وتأمل وتفاعل مع آياته، ففي صحيح مسلم عَنْ حُذَيْفَةَ قَالَ: صَلَّيْتُ مَعَ النَّبِيِّ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– ذَاتَ لَيْلَةٍ فَافْتَتَحَ الْبَقَرَةَ فَقُلْتُ يَرْكَعُ عِنْدَ الْمِائَةِ ثُمَّ مَضَى فَقُلْتُ يُصَلِّي بِهَا فِي رَكْعَةٍ فَمَضَى فَقُلْتُ يَرْكَعُ بِهَا ثُمَّ افْتَتَحَ النِّسَاءَ فَقَرَأَهَا ثُمَّ افْتَتَحَ آلَ عِمْرَانَ فَقَرَأَهَا يَقْرَأُ مُتَرَسِّلًا إِذَا مَرَّ بِآيَةٍ فِيهَا تَسْبِيحٌ سَبَّحَ وَإِذَا مَرَّ بِسُؤَالٍ سَأَلَ وَإِذَا مَرَّ بِتَعَوُّذٍ تَعَوَّذَ ثُمَّ رَكَعَ فَجَعَلَ يَقُولُ سُبْحَانَ رَبِّيَ الْعَظِيمِ فَكَانَ رُكُوعُهُ نَحْوًا مِنْ قِيَامِهِ ثُمَّ قَالَ سَمِعَ اللَّهُ لِمَنْ حَمِدَهُ ثُمَّ قَامَ طَوِيلًا قَرِيبًا مِمَّا رَكَعَ ثُمَّ سَجَدَ فَقَالَ سُبْحَانَ رَبِّيَ الْأَعْلَى فَكَانَ سُجُودُهُ قَرِيبًا مِنْ قِيَامِهِ.

وروى أبو داود والنسائي وغيرهما عن عَوْفَ بْنَ مَالِك يَقُولُ: قُمْتُ مَعَ النَّبِيِّ –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– فَبَدَأَ فَاسْتَاكَ وَتَوَضَّأَ، ثُمَّ قَامَ فَصَلَّى فَبَدَأَ فَاسْتَفْتَحَ مِنَ الْبَقَرَةِ، لَا يَمُرُّ بِآيَةِ رَحْمَةٍ إِلَّا وَقَفَ وَسَأَلَ، وَلَا يَمُرُّ بِآيَةِ عَذَابٍ إِلَّا وَقَفَ يَتَعَوَّذُ، ثُمَّ رَكَعَ فَمَكَثَ رَاكِعًا بِقَدْرِ قِيَامِهِ، يَقُولُ فِي رُكُوعِهِ: «سُبْحَانَ ذِي الْجَبَرُوتِ وَالْمَلَكُوتِ وَالْكِبْرِيَاءِ وَالْعَظَمَةِ»، ثُمَّ سَجَدَ بِقَدْرِ رُكُوعِهِ يَقُولُ فِي سُجُودِهِ: «سُبْحَانَ ذِي الْجَبَرُوتِ وَالْمَلَكُوتِ وَالْكِبْرِيَاءِ وَالْعَظَمَةِ»، ثُمَّ قَرَأَ آلَ عِمْرَانَ، ثُمَّ سُورَةً، ثُمَّ سُورَةً، فَعَلَ مِثْلَ ذَلِكَ

وفي مسند أحمد عَنْ أَبِي وَائِلٍ، عَنْ عَبْدِ اللهِ، قَالَ: "صَلَّيْتُ، أَوْ قُمْتُ مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذَاتَ لَيْلَةٍ، فَلَمْ يَزَلْ قَائِمًا حَتَّى هَمَمْتُ بِأَمْرِ سَوْءٍ " قَالَ: قُلْنَا مَا هَمَمْتَ ؟ قَالَ: "هَمَمْتُ أَنْ أَجْلِسَ وَأَدَعَهُ". [صحيح]

فعلى المسلم أن يجعل همه زيادة الإيمان والتأثر بالقرآن ولا يكون همه الاكتشافات المجردة عن الدليل، بل لا بد أن يتحرى موافقة الدلالة اللغوية لما اكتشفه، وأن لا يكون فيه

ما يخالف الثابت من الوحي، فإن حمل القرآن على ما لم يدل عليه من القول على الله بغير علم، وإن من الذنوب العظيمة أن يقول المرء على الله ما لا علم له به.

قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف:33]

وهو من نزغات الشيطان التي يصطاد بها كثيرًا من أهل الخير، وقد قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ * إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:168-169]

** ومن ضوابط في تدبر القرآن أنه ينبغي الانتباه إلى الفرق بين معرفة معنى الآية في لغة العرب، وبين معرفة مراد الله من الآية، وبين التدبر المبني على فهم الآية، وهذه أربعة مقامات لفهم القرآن وتدبره، يحسن التمييز بينها:

فالمقام الأول؛ المعنى اللغوي: ويشترك في العلم به كلُّ من عرف معاني الألفاظ والجمل في لغة العرب الذين نزل القرآن بلسانهم.

يقول الطبري -رحمه الله- وهو يعدُّ الوجوه التي يوصل بها إلى فهم القرآن ومعرفة معناه:

"منه ما يَعلم تأويلَه كلُّ ذي علم باللسان الذي نزل به القرآن. وذلك: إقامة إعرابه، ومعرفة المسمَّيات بأسمائها اللازمة غيرِ المشترَك فيها، والموصوفات بصفاتها الخاصة دون ما سواها، فإن ذلك لا يجهله أحدٌ منهم.

وذلك كسامعٍ منهم لو سمع تاليًا يتلو: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لاَ تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ * أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لاَ يَشْعُرُونَ﴾ [البقرة:11-12]، لم يجهل أنّ معنى الإفساد: هو ما ينبغي تركهُ مما هو مضرَّة، وأن الإصلاحَ: هو ما ينبغي فعله مما فعله منفعةٌ، وإنْ جَهِل المعانيَ التي جعلها الله إفسادًا، والمعانيَ التي جَعلها الله إصْلاحًا.

فالذي يعلمه ذو اللسان – الذي بلسانه نزل القرآنُ – من تأويل القرآن، هو ما وصفتُ: مِنْ معرفة أعيان المسمَّيات بأسمائها اللازمة غيرِ المشترَك فيها، والموصوفات بصفاتها الخاصة، دون الواجب من أحكامها وصفاتها وهيأتها التي خص الله بعلمها نبيَّه -صَلَّى اللَّهُ

عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–، فلا يُدرَك علمُهُ إلا ببيانه، دون ما استأثر الله بعلمه دون خلقه" [تفسير الطبري]

فالعالم بلغة العرب، إذا قرأ الآيتين المذكورتين؛ علِم الإفساد وأنه مرهَّب منه، والإصلاح وأنه مرغَّب فيه، وإن لم يعلم مراد الله بالمفسدين وهم لا يشعرون، أو كيف يفسدون وهم لا يشعرون.

والمقام الثاني؛ معرفة مراد الله تعالى من الآية، وهو تفسير الآية: ومعرفة تفسير القرآن وبيان معناه، أي: معرفة مراد الله تعالى من كلامه، هي وظيفة النبي –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– كما قال الله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل:44]

يقول السعدي –رحمه الله– في تفسيره: ﴿وَأَنزلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ﴾ أي: القرآن الذي فيه ذكر ما يحتاج إليه العباد من أمور دينهم ودنياهم، الظاهرة والباطنة، ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نزل إِلَيْهِمْ﴾، وهذا شامل لتبيين ألفاظه وتبيين معانيه"، انتهى.

ولا يجوز في هذا المقام القول بالرأي ولا بالظن، ويحرم أن ينسب المرء شيئًا إلى مراد الله تعالى، إلا ببرهان أنه مراد الله تعالى من كلامه، وإلا كان تقولًا على الله، وقولًا على الله بلا علم، وهو من المحرَّمات الكبائر، لقول الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾

قال الشيخ ابن عثيمين –رحمه الله–: "تفسير القرآن ليس بالأمر الهين، لأن تفسير القرآن يعني أنك تشهد على أن الله أراد به كذا وكذا، فلابد أن يكون هناك دليل: إما من القرآن نفسه، وإما من السنة، وإما من تفسير الصحابة رضي الله عنهم.

أما أن يحول الإنسان القرآن على المعنى الذي يراه بعقله أو برأيه، فقد قال النبي –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: (من قال في القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار)" [تفسير ابن عثيمين] أما الحديث (من قال في القرآن برأيه) فقد قال فيه الألباني: لا وجود له بهذا اللفظ وإنما هو مركب من حديثين كلاهما ضعيف.

وقال الترمذي في سننه: وَهَكَذَا رُوِيَ عَنْ بَعْضِ أَهْلِ العِلْمِ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– وَغَيْرِهِمْ، أَنَّهُمْ شَدَّدُوا فِي هَذَا فِي أَنْ يُفَسَّرَ القُرْآنُ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَأَمَّا الَّذِي

رُوِيَ عَنْ مُجَاهِد وَقَتَادَةَ وَغَيْرِهِمَا مِنْ أَهْلِ العِلْمِ أَنَّهُمْ فَسَّرُوا القُرْآنَ، فَلَيْسَ الظَّنُّ بِهِمْ أَنَّهُمْ قَالُوا فِي القُرْآنِ أَوْ فَسَّرُوهُ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَوْ مِنْ قِبَلِ أَنْفُسِهِمْ. وَقَدْ رُوِيَ عَنْهُمْ مَا يَدُلُّ عَلَى مَا قُلْنَا، أَنَّهُمْ لَمْ يَقُولُوا مِنْ قِبَلِ أَنْفُسِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ [سنن الترمذي]

فالتفسير هو بيان مراد الله تعالى من كلامه، أي: المراد المخصوص من الآية المخصوصة، فلا يكفي أن يكون المعنى صواباً في اللغة حتى يقول المرء إنه هو مراد الله من آية كذا، بل لا بد أن يكون مع القائل برهان وعِلم وحجة أن هذا المعنى هو مراد الله في هذا الموضع.

والمقام الثالث؛ معرفة وقوع وتحقق ما أخبر الله به، وهو تأويل الآية أو ما تئول إليه الآية:

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية –رحمه الله–: "﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ﴾ [يونس:39] أي: كذبوا بالقرآن الذي لم يحيطوا بعلمه ولَمَّا يأتهم تأويله. ففرَّق بين الإحاطة بعلمه، وبين إتيان تأويله.

فتبيَّن أنه يمكن أن يحيط أهلُ العلم والإيمان بعلمه، ولَمَّا يأتهم تأويله، وأن الإحاطة بعلم القرآن ليست إتيان تأويله، فإنَّ الإحاطة بعلمه: معرفة معاني الكلام على التمام، وإتيان التأويل: نفس وقوع المخبَر به، وفرقٌ بين معرفة الخبر، وبين المخبَر به، فمعرفة الخبر هي معرفة تفسير القرآن، ومعرفة المخبَر به هي معرفة تأويله ... فالتأويل؛ هو الحقيقة الخارجة، وأما معرفة تفسيره ومعناه؛ فهو معرفة الصورة العلمية. وهذا هو الذي بيناه فيما تقدَّم: أن الله إنما أنزل القرآن ليُعلَم ويُفهَم ويُفقَه ويُتدبَّر ويُتفكَّر فيه، محكمه ومتشابهه، وإن لم يُعلَم تأويله" [مجموع الفتاوي].

وكثير من أهل العلم يطلق على (التفسير) الذي ذكرناه سابقا: (تأويلا)، كالذي ذكرناه هنا أيضا، كالطبري وغيره، وليس في ذلك حرج، فكل من هذين من معرفة مراد الله من الآية.

والمقام الرابع؛ تدبر الآية والاعتبار والاتعاظ بها ومعرفة ما يستفاد منها للعمل به: وهذا هو الذي ذمَّ الله تعالى المنافقين والكافرين على تركه، فقد كان منهم العرب الذين يعرفون المعنى اللغوي، وقد بيَّن لهم الرسول –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– مراد الله تعالى منه

أيضًا، لكن كان منهم من يُعرض ولا يسمع الذِّكر، وكان منهم من يَسمع ثم يكذِّب بصدق الرسول –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– عنادًا، أو يجحد الحجج والبينات بعد أن تبينت له.

وكان منهم –أيضًا– من يستمع فيفهم مراد الله من القرآن، وتبلغه الحجة بيِّنة، لكنه لا يتدبر، ولا يتفكر، ولا يتعظ، ولا يتأمل.

فتركوا التدبر، أي: التفكر والتذكر والنظر والتأمل والاعتبار، فبذلك تركوا ما يورث الخشية والتصديق، ويزيد الإيمان والعمل الصالح.

يقول الشيخ مساعد الطيار: "والأصل أن مرحلة التدبر تأتي بعد الفهم ... وأن التدبر يكون فيما يتعلق بالتفسير، أي أنه يتعلق بالمعنى المعلوم"، [انتهى مختصرًا من «مفهوم التفسير»]

فالتدبُّر ليس قبل الفهم، والفهم الصواب هو معرفة التفسير، وهو معرفة مراد الله من الكلام، وقد سبق شرح الجائز من ذلك والممنوع.

** وليحذر المرء من القول في كتاب الله بغير علم، فإن الله حين شرع التدبر للناس، لم يشرع لهم أن يتجرؤوا على كتابه، بل هذا أمر لهم بتحصيل الآلة المعينة على هذا التدبر.

فليس التدبر هو إحداث معنى من (التفسير) لم يقل به أحد، ثم ذكره على أنه مراد الله تعالى، ولا يُلتمَس فيه الوارد عن النبي –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– وأصحابه والتابعين، بل هذا خطر عظيم.

وهناك بعض الأمور يترجح بها أن قائلها قد سلك مسلك (التفسير) وبيان معنى كلام الله ومراده تعالى منه، وليس مسلك (التدبر)، مثل أن يقول القائل: (مراد الله من هذه الآية كذا) أو (قدَّم الله كلمة كذا لأنه يريد بذلك بيان كذا)، بلا حجَّة ولا علم مأثور، فهذا هو التقول على الله، وهو القول على الله بلا علم، وهو من الكبائر، وأن القائل في القرآن برأيه وظنِّه بلا حجة؛ قد أخطأ وأثِم حتى إن كان ظنُّه ورأيه صوابًا في هذا الموضع.

وهذا بخلاف أن يقول: يستفاد من هذه الآية كذا، أو: استفدت كذا، أو: من فوائد استعمال الجملة الاسمية في اللغة كذا.

ثم هذه الدقائق واللطائف؛ الأصل فيها أنها للعلماء، وتكون بعد إتقان معرفة (التفسير) كما سبق، وأولى وأعظم مراتب التدبر: معرفة المعنى المطابق للآية وهو معرفة التفسير، وكثير من الناس لا ينبغي أن يتجاوز هذه المرتبة.

يقول الشيخ خالد السبت عن أنواع التدبُّر: "إن من هذه الأنواع ما يصلح لعموم الناس، ومنها ما لا يُحسِنُه إلا العلماء، وبناء على ذلك فإن من الشَّطَط أن تتوجَّه الأذهانُ عند الحديث عن التدبر إلى استخراج المعاني واللطائف والنِّكات الدقيقة التي لم نُسْبَق إليها (!!) فإن ذلك لا يصلح إلا للعلماء، لكنَّ المؤمن يتدبر ليُرَقِّق قلبه، ويتعرَّف مواطنَ العِبَر، ويَعْرِض نفسَه على ما ذكره الله تعالى في القرآن الكريم من أوصاف المؤمنين، ويحذر من الاتصاف بصفات غيرهم، إلى غير ذلك مما ينتفع به، ويمكن حصوله لكلِّ من تدبر كتاب الله عز وجل" [الخلاصة في تدبر القرآن الكريم]

أما كل شيء يُنسب لمراد الله تعالى من غير حجة، فينبغي تجنّبه، أو عرضه على أهل العلم بالتفسير، حتى لا يعدّ قولًا في القرآن بالرأي والظن بلا علم ولا حجة، مثل قول القائل: إن الله قدَّم كلمة كذا وأخَّر كذا –ليضيف معنًى جديدا–، وهو كذا، ونحو ذلك!

** إذا كان "التفسير" من كلام الصحابة، ولم ينسبوه إلى رسول الله –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–، ولم يكن له حكم الرفع ولم يجمعوا عليه – فهو بيان لمراد الله تعالى بحسب ما ظهر لهم، أو لقائل ذلك منهم.

وهم –رضوان الله عليهم– بشر، ليسوا بأنبياء ولا معصومين؛ وقد يصيبون ويخطئون، لكنهم لمعايشتهم لنزول الوحي، وبيان النبي –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– لهم ما يحتاجون إليه، ومعرفتهم للغة العرب التي نزل بها القرآن أتم المعرفة، ولرسوخهم في مقامات العلم والإيمان.. فهم لذلك كله: أقرب الناس لمعرفة المراد من كلام الله تعالى، لاسيما من دعا له النبي –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– فقال: (وعلمه التأويل) وهو ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وقد أخذ عنه جماعة من التابعين، كمجاهد، وسعيد بن جبير، وعكرمة، وغيرهم، وقال مجاهد: عرضت المصحف على ابن عباس ثلاث عرضات من فاتحته إلى خاتمته، أوقفه عند كل آية، وأسأله عنها.

ولهذا قال سفيان الثوري –رحمه الله–: إذا جاءك التفسير عن مجاهد فحسبك به.

قال ابن كثير –رحمه الله– في مقدمة تفسيره: "والغرض: أنك تطلب تفسير القرآن منه، فإن لم تجده فمن السنة...وحينئذ، إذا لم نجد التفسير في القرآن ولا في السنة، رجعنا في ذلك إلى أقوال الصحابة، فإنهم أدرى بذلك، لما شاهدوا من القرائن والأحوال التي اختصوا بها، ولما لهم من الفهم التام، والعلم الصحيح، والعمل الصالح، لاسيما علماؤهم وكبراؤهم، كالأئمة الأربعة والخلفاء الراشدين، والأئمة المهديين، وعبد الله بن مسعود، –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ–.

قال الإمام أبو جعفر محمد بن جرير حدثنا أبو كريب، حدثنا جابر بن نوح، حدثنا الأعمش، عن أبي الضحى، عن مسروق، قال: قال عبد الله –يعني ابن مسعود: "والذي لا إله غيره، ما نزلت آية من كتاب الله إلا وأنا أعلم فيمن نزلت؟ وأين نزلت؟ ولو أعلم مكان أحد أعلم بكتاب الله مني تناله المطايا لأتيته."

وقال الأعمش أيضا، عن أبي وائل، عن ابن مسعود قال: كان الرجل منا إذا تعلم عشر آيات لم يجاوزهن حتى يعرف معانيهن، والعمل بهن.

وقال أبو عبد الرحمن السلمي: حدثنا الذين كانوا يقرئوننا أنهم كانوا يستقرئون من النبي –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–، فكانوا إذا تعلموا عشر آيات لم يخلفوها حتى يعملوا بما فيها من العمل، فتعلمنا القرآن والعمل جميعا.

ومنهم الحبر البحر عبد الله بن عباس، ابن عم رسول الله –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–، وترجمان القرآن وببركة دعاء رسول الله –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– له حيث قال: (اللهم فقهه في الدين، وعلمه التأويل)

وقال ابن جرير: حدثنا محمد بن بشار، حدثنا وكيع، حدثنا سفيان، عن الأعمش، عن مسلم قال عبد الله –يعني ابن مسعود–: نعم ترجمان القرآن ابن عباس.

ثم رواه عن يحيى بن داود، عن إسحاق الأزرق، عن سفيان، عن الأعمش، عن مسلم بن صبيح أبي الضحى، عن مسروق، عن ابن مسعود أنه قال: نعم الترجمان للقرآن ابن عباس.

فهذا إسناد صحيح إلى ابن مسعود: أنه قال عن ابن عباس هذه العبارة.

وقد مات ابن مسعود –رضي الله عنه– في سنة اثنتين وثلاثين على الصحيح، وعمّر بعده ابن عباس ستا وثلاثين سنة، فما ظنك بما كسبه من العلوم بعد ابن مسعود؟

وقال الأعمش عن أبي وائل: "استخلف عليٌّ عبدَ الله بن عباس على الموسم، فخطب الناس، فقرأ في خطبته سورة البقرة، وفي رواية: سورة النور، ففسرها تفسيرا لو سمعته الروم والترك والديلم لأسلموا".

ثم قال ابن كثير –رحمه الله–: "إذا لم تجد التفسير في القرآن، ولا في السنة، ولا وجدته عن الصحابة: فقد رجع كثير من الأئمة في ذلك إلى أقوال التابعين، كمجاهد بن جبر، فإنه كان آية في التفسير.

كما قال محمد بن إسحاق: حدثنا أبان بن صالح، عن مجاهد، قال: عرضت المصحف على ابن عباس ثلاث عرضات، من فاتحته إلى خاتمته، أوقفه عند كل آية منه، وأسأله عنها.

وقال ابن جرير: حدثنا أبو كريب، حدثنا طلق بن غنام، عن عثمان المكي، عن ابن أبي مليكة قال: رأيت مجاهدا سأل ابن عباس عن تفسير القرآن، ومعه ألواحه، قال: فيقول له ابن عباس: اكتب، حتى سأله عن التفسير كله.

ولهذا كان سفيان الثوري يقول: إذا جاءك التفسير عن مجاهد فحسبك به.

وكسعيد بن جبير، وعكرمة مولى ابن عباس، وعطاء بن أبي رباح، والحسن البصري، ومسروق ابن الأجدع، وسعيد بن المسيب، وأبي العالية، والربيع بن أنس، وقتادة، والضحاك بن مزاحم، وغيرهم من التابعين وتابعيهم ومن بعدهم.

فتذكر أقوالهم في الآية، فيقع في عباراتهم تباين في الألفاظ، يحسبها من لا علم عنده اختلافا، فيحكيها أقوالا، وليس كذلك؛ فإن منهم من يعبر عن الشيء بلازمه، أو بنظيره، ومنهم من ينص على الشيء بعينه، والكل بمعنى واحد في كثير من الأماكن، فليتفطن اللبيب لذلك، والله الهادي.

وقال شعبة بن الحجاج وغيره: أقوال التابعين في الفروع ليست حجة؟ فكيف تكون حجة في التفسير؟

يعني: أنها لا تكون حجة على غيرهم ممن خالفهم، وهذا صحيح، أما إذا أجمعوا على الشيء فلا يُرتاب في كونه حجة، فإن اختلفوا، فلا يكون بعضهم حجة على بعض، ولا على من بعدهم، ويُرجع في ذلك إلى لغة القرآن، أو السنة، أو عموم لغة العرب، أو أقوال الصحابة في ذلك" انتهى.

وقال ابن القيم –رحمه الله– في «إعلام الموقعين»: "فإن قيل: فإذا كان هذا حكم أقوالهم في أحكام الحوادث، فما تقولون في أقوالهم في تفسير القرآن؟ هل هي حجة يجب المصير إليها؟

قيل: لا ريب أن أقوالهم في التفسير أصوب من أقوال من بعدهم.

وقد ذهب بعض أهل العلم إلى أن تفسيرهم في حكم المرفوع، قال أبو عبد الله الحاكم في مستدركه: وتفسير الصحابي عندنا في حكم المرفوع.

ومراده: أنه في حكمه، في الاستدلال به والاحتجاج، لا أنه إذا قال الصحابي في الآية قولا، فلنا أن نقول هذا القول قول رسول الله –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–، أو قال رسول الله –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–.

وله وجه آخر، وهو أن يكون في حكم المرفوع؛ بمعنى أن رسول الله –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– بين لهم معاني القرآن وفسره لهم، كما وصفه تعالى بقوله: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل:44] فبين لهم القرآن بيانا شافيا كافيا، وكان إذا أشكل على أحد منهم معنى سأله عنه، فأوضحه له، كما سأله الصديق عن قوله تعالى: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ﴾ [النساء:123] فبين له المراد، وكما سأله الصحابة عن قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَـئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام:82] فبين لهم معناها، وكما سألته أم سلمة عن قوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَاباً يَسِيراً﴾ [الانشقاق:8] فبين لها أنه العرض، وكما سأله عمر عن الكلالة، فأحاله على آية الصيف التي في آخر السورة.وهذا كثير جدا.

فإذا نقلوا لنا تفسير القرآن فتارة ينقلونه عنه بلفظه، وتارة بمعناه، فيكون ما فسروا بألفاظهم من باب الرواية بالمعنى، كما يروون عنه السنة تارة بلفظها، وتارة بمعناها، وهذا أحسن الوجهين، والله أعلم" انتهى.

والمقصود من هذا : بيان أن الصحابة هم أعلم الناس بتفسير القرآن بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم.

حجية قول الصحابي في التفسير، ووجوب الأخذ بقوله في ذلك تفصيل:

أولاً: ما كان له حكم المرفوع، لأنه لا مجال للرأي وإعمال العقل فيها، بل لابد من النقل فيها عن رسول الله –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–، ويشمل:

1/ أسباب النزول: مثاله ما رواه جابر –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ– قال: كانت اليهود تقول: إذا جامعها من ورائها جاء الولد أحول، فنزلت: ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُواْ حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ﴾ [البقرة:223]

قال الحاكم بعد أن ساق الحديث: هذا الحديث وأشباهه مسندة عن آخرها، وليست بموقوفة، فإن الصحابي الذي شهد الوحي والتنزيل، فأخبر عن آية من القرآن أنها نزلت في كذا وكذا، فإنه حديث مسند.

2/ الغيبيات: مثاله: ما رواه سعيد بن جبير عن ابن عباس –رضي الله عنهما– قال: الكرسي موضع القدمين، والعرش لا يقدر أحد قدره.

3/ قصص الآيات وأحوال الناس الذي نزل فيهم القرآن، فإنها من المنقول الذي لا سبيل للاجتهاد والرأي فيه.

مثاله: قصة إبراهيم عليه السلام مع النمروذ بن كنعان في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَآجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رِبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِـي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِـي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة:258]

ثانياً : ماله حكم الإسرائيليات: فإنه ينظر في الروايات:

فما كان موافقاً لما في القرآن الكريم والسنة المطهرة، فحكمه القبول.

وإن كان مخالفاً للقرآن والسنة فحكمه الرد والرفض ولا تجوز روايته إلا لبيان زيفه وبطلانه.

وإن لم يرد في القرآن ولا في السنة ما يؤيده أو يخالفه فحكمه التوقف فيه.

ثالثاً: الاجتهاد: إذا أجمع الصحابة على قول واحد في تفسير آية، فيكون قولهم حجة يجب قبوله. وإذا وقع بينهم خلاف في تفسير آية: فلا يكون قول أحدهم حجة على الآخر؛ بل لابد من العمل بالمرجحات، والأخذ بدليل صالح للترجيح".

وأما التابعون ومن بعدهم، فإن أجمعوا على التفسير، إجماعا صحيحا: فالحجة هي إجماعهم، كما تقدم في النقل عن ابن كثير، ويصح الجزم حينئذ بأن كلامهم بيان لمراد الله تعالى.

وإن اختلفوا لم يكن قول بعضهم حجة على بعض، ولزم طلب الدليل المرجح.

** القرآن الكريم آياته محكمة ومفصَّلة، قد بيَّن النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- لأصحابه معناه وموضع الحجة فيه على البشر، كما بيَّن لفظه سواء.

"فإنه سبحانه وتعالى جعل القرآن نورًا وهدى، وبيانًا للناس، وشفاءً لما في الصدور، وأرسل الرسل ليبين للناس ما نُزِّل إليهم، وليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه، ولئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل" [مجموع الفتاوى لابن تيمية]

ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية: "وقوله تعالى: ﴿كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ﴾ [هود:1] فقد فصَّله بعد إحكامه؛ بخلاف من تكلم بكلام لم يُحْكِمه، وقد يكون في الكلام المحكم ما لم يبينه لغيره؛ فهو سبحانه أحكم كتابه، ثم فصَّله وبيَّنه لعباده، كما قال: ﴿وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ﴾ [الأنعام:55] وقال: ﴿وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَى عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف:52]، فهو سبحانه بيَّنه وأنزله على عباده بعلمٍ، ليس كمن يتكلَّم بلا علم" [مجموع الفتاوي]

ويقول أيضًا: "النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- بيَّن لأصحابه القرآنَ؛ لفظَه ومعناه جميعًا، فإن البيان لا يحصل بدون هذا" [جواب الاعتراضات المصرية على الفتيا الحموية]

وقال ابن القيم: "فكما بلَّغ الرسول ألفاظ القرآن للأمة؛ بلَّغهم معانيه، بل كانت عنايته بتبليغ معانيه أعظم من مجرد تبليغ ألفاظه، ولهذا وصل العلم بمعانيه إلى من لم يصل إليه حفظ ألفاظه، والنقل لتلك المعاني أشد تواترا وأقوى اضطرارًا، فإن حفظ المعنى أيسر من حفظ اللفظ، وكثير من الناس يعرف صورة المعنى ويحفظها، ولا يحفظ اللفظ، والذين نقلوا الدين عنه علموا مراده قطعًا، لما تلا عليهم من تلك الألفاظ" [الصواعق المرسلة]

وهذا البيان يشمل معاني المحكم، ومعاني المتشابه، وهو الذي يشتبه على كثير من الناس أو بعضهم، ويعرفه الراسخون في العلم بردِّه إلى المحكم.

قال ابن كثير –رحمه الله–: "يخبر تعالى أن في القرآن آياتٍ محكماتٍ هن أم الكتاب؛ أي بينات واضحات الدلالة لا التباس فيها على أحد، ومنه آيات أخر فيها اشتباه في الدلالة على كثير من الناس، أو بعضهم، فمن ردَّ ما اشتبه إلى الواضح منه، وحكَّم محكمَه على متشابهه عنده؛ فقد اهتدى، ومن عكس انعكس، ولهذا قال تعالى: ﴿هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ﴾، أي: أصله الذي يُرجَع إليه عند الاشتباه، ﴿وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾، أي: تحتمل دلالتها موافقة المحكَم، وقد تحتمل شيئًا آخر من حيث اللفظ والتركيب، لا من حيث المراد" [تفسير القرآن العظيم]

ومن قال: إن معاني كلمة واحدة في القرآن لا حد لها؛ لأن القرآن صفة الله تعالى، وكما إن الله تعالى ليس له نهاية فصفته ليس لها نهاية" فهذا المعنى المذكور، قد ذكره بعض أهل العلم، ومعناه عندهم لا يتعارض مع قيام الحجة بالقرآن، ببلوغ معانيه ومواضع الحجة منه إلى الناس، لكن مرادهم بذلك: أنه لا مطمع في استقصاء فوائد القرآن وما أودعه الله فيه من دلائل وهدايات وعجائب ليس لها نهاية فهي لا تنقضي، وفوائد القرآن كثيرة عظيمة لا تقتصر على موضع الحجة الواجبة القائمة على الناس.

ويذكر بعض العلماء أنَّ استقصاء كل الفوائد القرآنية وفهمها وبلوغ آخرها؛ غيرُ ممكن، لأنها لا غاية ولا نهاية لها، كما أنه لا نهاية للمتكلم بالقرآن سبحانه وتعالى، وقد نُقل هذا المعنى عن سهل بن عبد الله التستري رحمه الله.

قال أبو الحسن الواحدي: "وكلٌّ ينفق مما رزقه الله، ويعمل على مقدار ما وفقه الله، ومتى يبلغ ضَعف سعينا وقاصر جهدنا نهاية ما لا يتناهى؟!

وهذا سهل بن عبد الله يقول: لو أعطي العبد بكل حرف من القرآن ألف فهم؛ لم يبلغ نهاية ما أودع الله في آية من كتابه، لأنه كلام الله، وكلامه صفته، وكما أن ليس لله نهاية؛ فكذلك لا نهاية لفهم كلامه، وإنما يَفهم كلٌّ بمقدار ما يفتح الله على قلبه. وكلام الله غير مخلوق، ولا يبلغ إلى نهاية فهمه فهومٌ محدثةٌ مخلوقة" [التفسير البسيط]

ويقول الزركشي في «البرهان في علوم القرآن»: فهم كلام الله تعالى لا غايةَ له، كما لا نهايةَ للمتكلِّم به، فأمَّا الاستقصاءُ فلا مطمع فيه للبشر، ومن لم يكن له علمٌ وفهمٌ وتقوى وتدبُّر؛ لم يدرك من لذة القرآن شيئًا"

فمراد العلماء بذلك أنه لا يُستقصى ما أودعه الله تعالى في كتابه من أنواع البراهين، وصنوف الهداية وأسرارها، أي: لا يبلغ أحد الإحاطة بجميع ذلك حتى يبلغ النهاية فلا يبقى معنى إلا فهمَه وأدركَه.

وهذا لا يتعارض مع قيام الحجة، بفهم معانيه المحكمة المفصلة التي جعلها الله حجة على العباد، فليس لهم حجة على الله بعدها، لأن فهم الحجة هو أول الفهم وأصله، وهو المعنى المطابق للآية، ويبقى بعده كثير من الفوائد والأحكام والنكت والاستنباطات.

وهذا نحو قول العلماء عن القرآن: (لا تنقضي عجائبه)، قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله: "قوله: (ولا تنقضي عجائبه)؛ لا تنقضي عجائبه لمن أعطاه الله تعالي فهمًا لكتابه، فإنه يتذوق فيه المعاني العظيمة الكثيرة، أما المعرض عنه فإنه قد لا يرى فيه عجبًا واحدًا، لكننا هنا نصف القرآن من حيث هو قرآن، بقطع النظر عن القارئ" [شرح مقدمة التفسير" لابن تيمية]

وقال ابن القيم: "والمقصود تفاوت الناس في مراتب الفهم في النصوص، وأن منهم من يفهم من الآية حكمًا أو حكمين، ومنهم من يفهم منها عشرة أحكام أو أكثر من ذلك، ومنهم من يقتصر فهمُه على مجرد اللفظ؛ دون سياقه، ودون إيمائِه وإشارته وتنبيهِه واعتباره" [أعلام الموقعين].

فإذا خرج الكلام مخرج هذه المعاني المنقولة عن العلماء، فهو صحيح، وأما القرآن فكلماته وحروفه معدودة محددة، ومعانيه التي تقوم بها الحجة معلومة مبيَّنة، والحجة قائمة على العباد بالقرآن، لفظه ومعانيه، وكل ذلك منقول عن النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-.

** هل حفظ القرآن أولى، أم العمل به، أم فعل الصحابة من تعلم عشر آيات بعشر آيات والعمل بهن؟؟

هذا السؤال: مجرد إشكالية نظرية، مخادعة!! فليس هناك تعارض بين حفظ القرآن، والعمل به كما كان الصحابة يفعلون.

فمتى كان الحفظ مانعا من العمل؟ ومتى كان العمل شاغلا عن الحفظ ؟

إن أعظم ما يتسعان به على حفظ القرآن: أن تعمل به..وأعظم ما يعين على العمل بالقرآن أن تحفظه.

وهكذا، فلتكن العناية بأن يحفظ "حدود القرآن"، و"حروفه" معا؛ فبهذا تنال بركة القرآن، ويعظم خيره في قلب العبد، وعيشه كله. وإلا؛ فثمة فرق بين حال نزول القرآن، مفرقا، منجما، في أول الأمر، يحفظه الصحابة على هينة من أمرهم، ويتدبرونه، ويتعلمون معانيه، وحروفه.. وبين حال من تلاهم من السلف الصالحين، فما نعلم أن أحدا قد استشكل هذا الأمر بعد، أو رأى الحفظ معارضا للعمل، أو طرح السؤال بين الخيارين؛ فإنهما جناحان، يتكاملان، ويتعاضدان على حمل العبد في سيره إلى رب العالمين: أن يحفظ الحروف، ويرعى الحدود.

ثم يستكثر العامل من كل باب منهما، بحسب ما أعطاه الله، ووفقه له. فمن كان ميسرا للعلم، أوتي حفظا حسنا، وفي سن مواتية: استكثر من الحفظ والضبط، ثم انشغل بعد بتعلم أحكامه، وفقهه، وتفسيره، وتدبره.

ومن لم يُعط ذلك، ولم يُرزق القلب الواعي الذي يعينه على حفظ الحروف، فلتكن همته باب العمل، والاستكثار منه، والدخول على رب العالمين منه، عسى أن يفتح له فيه.

وفي السن الصغيرة: يستكثر العبد من الحفظ ما وسعه، وما شاء الله له؛ فما زال الناس يقولون: إن الحفظ في الصغر، كالنقش في الحجر.

ولا يكن ذلك مانعا له من العمل، بقدر ما وسعه جهده، وبلغه علمه وفهمه... قال الله تعالى: ﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ﴾ [الرعد:17]

قال شيخ الإسلام ابن تيمية –رحمه الله–: "وكذلك يضرب الله الأمثال للوحي الذي أنزله حياة للقلوب، ونورا لها؛ بالماء الذي يترله من السماء، حياة للأرض، وبالنار التي يحصل بها النور. وهذا كما في قوله تعالى: ﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً..﴾ الآية

فشبه العلم بالماء المنزل من السماء؛ لأن به حياة القلوب، كما أن بالماء حياة الأبدان، وشبه القلوب بالأودية، لأنها محل العلم، كما أن الأودية محل الماء؛ فقلب يسع علما كثيرا، وواد يسع ماء كثيرا، وقلب يسع علما قليلا، وواد يسع ماء قليلا.

وأخبر تعالى أنه يعلو على السيل من الزبد، بسبب مخالطة الماء، وأنه يذهب جفاء أي: يُرمى به، ويُجْفى. والذي ينفع الناس يمكث في الأرض ويستقر.

وكذلك القلوب: تخالطها الشهوات والشبهات فإذا، ترابى فيها الحق، ثارت فيها تلك الشهوات والشبهات، ثم تذهب جفاء، ويستقر فيها الإيمان والقرآن الذي ينفع صاحبه والناس.

وقال: ومما يوقدون عليه في النار ابتغاء حلية أو متاع زبد مثله كذلك يضرب الله الحق والباطل فهذا المثل الآخر، وهو الناري؛ فالأول للحياة، والثاني للضياء" [مجموع الفتاوى]

فإن وجد من نفسه همة، فليحفظ المفصل [من سورة ق أو الحجرات وحتى ختام المصحف]، مع فهم ما تيسر له من المعنى، ولا يتجاوز المفصل حتى يفهم معناه.

وليحذر العبد الناصح لنفسه، أن يصده الشيطان عن حفظ كتاب الله، والتشرف بأن يكون من حملة القرآن، وأهله الحافظين له، الذين هم القراء، بحجة العمل، أو الاقتصار على عشر آيات، كما كان السلف.

وما روي عن السلف حق، حقيق لا ريب فيه؛ لكن احذر أن يصدك الشيطان عن الحق الذي تقدر عليه، ويلائم حالك، وسنك، بأمر وحال، لعلك لا تدركه، أو يفوتك ما هو خير لك، وأعظم بركة منه، أو يفوتك من الخير ما أنت قادر عليه، إذا تعلق قلبك بحال، أو عمل: لا تقدر عليه، أو لن يتيسر لك الاستمرار عليه، والثبات، حتى وإن فتح لك فيه المرة، بعد المرة.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية –رحمه الله–: "فالدين الواجب لا بد من تفضيله؛ إذ الفضل يدخل في الوجوب وإذا وجب الدين به دون خلافه فلأن يجب اعتقاد فضله أولى. وأما الدين المستحب فقد لا يشرع اعتقاد فعله إلا في حق من شرع له فعل ذلك المستحب وإلا فمن الناس من يضره إذا سلك سبيلا من سبل السلام الإسلامية أن يرى غيره أفضل منها؛ لأنه يتشوف إلى الأفضل فلا يقدر عليه والمفضول يعرض عنه.

وكما أنه ليس من مصلحته أن يعرف أفضل من طريقته إذا كان يترك طريقته ولا يسلك تلك فليس أيضا من الحق أن يعتقد أن طريقته أفضل من غيرها؛ بل مصلحته أن يسلك تلك الطريقة المفضية به إلى رحمة الله تعالى" [مجموع الفتاوى]

وجماع ذلك: أن تلزم طريق أهل العلم والحفظ في بلدك، فمتى وجدت من مجالس القرآن ما يعتني بحفظ القرآن، وتحفيظه، وتلقينه، فالزمها، وانتفع بها.

ومتى وجدت فيها مجالس لتفسير القرآن، وفهمه، وعلمه، وتدبره: فالزمها، ما أمكنك.

ومتى وجدت المجلسين، وتعارض عندك الجمع بين الأمرين: فساعتها نسمع منك سؤالك، مبنيا على معطيات علمية، واقعية، وننظر معك في الأوفق لك، والأنسب لحالك.

والمأمول من فضل الله، أنك متى استعنت بالله، واستهديته، أن يعنيك، ويفتح لك، ويهديك، ويفتح لك من مجامع الخير، وأبواب الفضل، ما هو أهل له سبحانه. وقد قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت:69].

** من كتب التدبر الشهيرة:

- القرآن تدبر وعمل"، مركز منهاج، وهو كتاب حافل ومهم.
- هذه رسالات القرآن"، د. فريد الأنصاري.
- المشوق إلى القرآن"، عمرو الشرقاوي.
- الخلاصة في تدبر القرآن"، د. خالد السبت.
- ليدبروا آياته.. حصاد سبع سنوات من التدبر "، دار الحضارة.
- أول تدبر"، د. نايف الزهراني.
- أول مرة أتدبر القرآن"، عادل محمد خليل.
- القواعد والأصول وتطبيقات التدبر"، د. خالد السبت.
- تدبر القرآن الكريم"، د. عبد اللطيف التويجري.

جمع وترتيب

د/ خالد سعد النجار

alnaggar66@hotmail.com